كَيفَ نقرَأُ؟ (٤)

استكمال القول في النَّوع الأوَّل مِن أَنواعِ القِراءةِ
القِراءةُ الاسْتكشافيّة

د. مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعد (١)

فـي المقال الســابق فرغت من القول في أهمية فقه دلالة عنــوان الكتاب على موضوعه ومغزاه وعلى منهاج القول فيه؛ ليكون القارئ على بصيرةٍ من أمره، فيتخذ لكل عدته.

ومما يحسن أن تتسنن به مع الأسفار العمد في بابها أو التي لم يسبق أن قرأت مثيلها أنك من بعد أن تفرغ من العرفان بــ (المؤلف) وبــ (عنوان الكتاب) تــسائل نفسك:

مــاذا أَنــت فاعلةٌ إن كنت أَنت الصانعة هذا الســفر بهذا (العنــوان) فتتخيل أنك الفاعل، فتضع خطةً افتراضيةً للسير فيه إلى الغاية، وتقيدها لتناظرها بعد الفراغ من قراءة الكتاب، فتبصر كيف كان الاختلاف والاتفاق، ومن أين كان الاجتماع والافتراق، وما الذي التفت أنت إليه، ولم يلتفت إليه المؤلف، وما الذي جاء إليه وبه، ولم تلتفت أنت إليه، وما وجه ذلك، الأمر في تكوينك، أم لهزالٍ في مخزونك العلمي والمعرفي أم لضعفٍ في أدواتك ومهاراتك؟ وهكذا.

مثل هذا إذا ما مارســته، ولا ســيما إن كنت في فاتحة طريقك إلى أن تكون من أهل العلم - مثلُ هذا يكون لك به يومًا ما مهارةٌ في التوقع وفي العرفان بالكتاب الآخر للمؤلف قبل أن تقرأ، فتأتيه، وأَنت غير جهولٍ بمنهجه، ومهاراته وأدواته ومغازيه.

إذا ما فرغت من ذلك ووفيته حقه، قدمت إلى (مقدمة) الكتاب، فهي طليعته(٢).

واعلــم علم يقين أن المؤلف، بل كل من يخاطبك إنما هو يغزوك ببيانه، يحتلك بعلمه، يتوطنك ليفعل فيك ثم بك ما يريد أن يفعل، فأنت بالنسبة له أمران:

أنت ضيفه الذي يتفنن المضيف (المؤلف) في قراه.

---

(١) عضو هيئة كبار العلماء.

(٢) «المقدّمة» يمكن أن تقرأها بكسر العين (الدَّال) أو بِفتحها، وأنا أفضّل أن تُقرأ بكسر العَين لفتًا إلى وظيفتها، أَمّا فتحها فينظر إلى موقِعها، والذي يهمنا وظيفتها، فهي تقدم لك الكتاب، تعرفك بِه، لتخلق شيئًا من الأنس بينكما، فيكون اللقاء بينكما لقاء متعارفين. وأكرم بِه لقاءً. حــذارِ أن تتعاملَ مع الكتاب على أنّه مجمــوع أوراق رقمتْ فِيها حروفٌ، كلاّ تعاملْ معَه علَى أنّه إنسانٌ، هو المؤلّف، تحاوِره، وتناكشه، وتناقشُه، فأنت في صحبة عالمٍ أوْ مثقّف. هذا الاستحضارُ هو الَّذي يُقيمك أَنيسًا بِما تقرأُ، فلا يَعرِفُ الملُ والسأمُ أوْ الوَحشةُ طريقًا إلى فؤادِك.





وأنت مستزرعه، يغرس فيك أشجاره (مغازيه).

ومن ثم تجده في (مقدمة) كتابه يضع بين يديك، ما يهديك، وما يغريك، فأحسن قراءة مقدمات الكتب، ولا سيما كتب الأعيان قديمًا وحديثًا، واحذر أن تمر عليها غير متوطنٍ معتكفٍ، واحملها في وعيك واسقها نمير فكرك، وأنت تقرأ ما بعدها من فصول الكتاب ومباحثه، لتتبين لك السبيل من جهةٍ، ولتبصر مقدار تحقق ما وعد في مقدمته.

ومقدمات الأسفار الجليلة لا تكاد تجد عنايةً من طلاب العلم في زماننا، فتجدهم يدلفون إلى الفصل الأول، بل ربما إلى الفصل الرابع، أو لا ينظرون إلا إلى موضع المسألة التي هي طلبته، ومن ثم لا تراه يحسن استنباط ما هو مكنوزٌ في المسألة أو الفصل الذي قرأ، وما له إن كان لنفسه أولًا نصوحًا، ثم للعلم خادمًا إلا أن يدخل من مقدمة الكتاب وطليعته.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الْبَقَرة: ١٨٩)

وفي زماننا، تجد شيخنا أبا أحمد محمد أبا موسى -أعزه الله بعزته - يُعنى بمقدمات أسفاره، وهو يجعل لكل طبعة من الكتاب مقدمة، لك منها ما لم يكن لك قبل.

ويغلب على مقدماته أن يمزج فيها بين تثويرك إلى التطهر من عوائق التلقي، والتحفيز والتهيئة لحسن الإقدام، فيأتي القارئ وهو محتسبٌ مسترخصٌ كل نفيسٍ من عمر وجهدٍ في سبيل اكتسابِ مكنوز هذا السفر، وهو فيما أفهم إنما ينزع في هذا من سنن الوحي في الحفز والتحريض والإغراء بالإقدام على معترك الفقه والفهم عن الله -سبحانه وبحمده -.

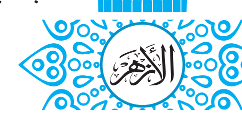
وكانت الأعيان ذات عنايةٍ بصناعة مقدمات الكتب وكانوا ينصون على ما يسمى بـ(الرءوس الثّمانية) المتمثلة فيما يأتي: الغرض، والمنفعة، والعنوان، والمؤلف، ونوع العلم، ومرتبة العلم بين العلوم، وأجزاء العلم، وطرائق التعليم لهذا العلم[٣].

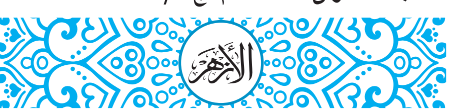
وعُني غير قليل بشرح مقدمات بعض الأسفار لما في هذه المقدمة من دقائق الفوائد ولطائفها ما لا يستغنى عنه، بل ربما لا توجد إلا في مقدمات الأسفار.

ومن يهاجر إلى مقدمة تفسير برهان الدين البقاعي(ت:٨٨٥هـ) المسمى (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) أو كتابه: (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) يكن له منها دقائق ولطائف لا يستغنى عنها، وليس بملكِ قائمٍ للقول في (علم التناسب القرآني) ألّا تكون مقدمة هذين السفرين مصدرًا رئيسًا.

---

(٣) للوقوف على القول التفصيليّ في (الرءوس الثمانية) راجع كتاب: (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)، تأليف: التهانوي: محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (ت: بعد ١١٥٨هـ) تحقيق: علي دحروج، تقديم ومراجعة: رفيق العجم، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٩٩٦م. ج:١/ ١٤، ١٥.







وإذا كان من أصول الإفهام أن يعنى المؤلف بصناعة مقدمة كتابٍ، فتكون منائر تهدي إلى حسن التلقي عنه كيما لا يؤتى القارئ من قبه، فيكون ذلك من سوء القرى لضيفه وجاره: "القارئ" «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٤)، فإنه من الإحسان في القراءة النافعة أن يعنى المرء بقراءة مقدمات الكتب قراءةً محيطة متغيرة مستحضِرةً ما تحمل من فرائد الفوائدِ.

فـإذا ما فرغت من الوفاء بحـق (مقدّمَة) الكتاب و(طليعته)، فدونك مباشـرةً (خاتمته) ففيها غالبا تخليصٌ وتكريسٌ لكلياتٍ ما فصل فيه، وبعض الناشئة يجعل خاتمة عمله تخليصًا لفصوله، قائلًا فعلت وفعلت، وهذا غير حميدٍ عندي، التخليص يكون للكليات المستنبطة بالتحليل والتأويل من القضايا والمسائل، وأهم ما يذكر في الخاتمة، ويعنَى بقراءته هو تخليص الجواب عن السؤال المحوري المنهجي الذي جاءَ الكتاب لتحقيقه، فلكل عملٍ علميٍ سـؤالٌ مركزي منهجي في رحمه أسئلةٌ جزئيةٌ متآخذةٌ يسعى إلى جوابه.

ثم تنظر في مصادر الكتاب ومراجعه، ومنازلها، فبعض تلك صدر عنها المؤلف في ذلك الكتاب (المصادر) وبعضها استشارها واستنار بها طريقه (المراجع).

ومراجعتك مصادر المؤلف ومراجعه لا تعني الاطلاع الأجرد المتمثل في الوقوف على أسمائها، وأسـماء مؤلفها، بل يعني العرفان بكل مصدر ومرجعٍ ومنزلته، والوقوف على مدى تنوع مصادر المؤلف ومراجعه، موضوعًا ومنهجًا وزمانًا.

ومثل هذا يعينكَ على أن تكون بصيرًا بشـأن المؤلف في اسـتقاء معارفه (غذاء فؤاده ودوائه) فالمؤلف الذي يهنى بمصادر طعام فؤاده فلا يأكل إلا من طعام طيب، فعنايته بصحة غذاء فؤاده مقـدم علـى العناية بصحة طعام جسـده، ومن ثم تفقه وجهًا من وجوه قولِ سـيدنا رسـولِ الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم -: « ... وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا »(٥).

وأنـت بهذه المراجعة للمصـادرِ والمراجع يمكنك أن تبصر فعل هـذه المصادر والمراجع في المؤلف تفكيرًا وتعبيرًا، وتبصر أيضًا موقفه هو منها خدمةً بالتفصيل والتقريب والتقرير والتقويم والتثوير، فالمؤلف الذي لا يضفي على مصادره سيرورة، وحضورًا في وعي قرائه لا يكون محسنًا لها، وحقها عليه أن يحسن إليها، كمثل ما أحسنت إليْه

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾(النِسَاء: ٨٦)

ذلك قولٌ وجيزٌ في النوع الأول من أنواع القراءة: القراءَة الاستكشافية. والله تعالى هو المستعانُ على طاعته.

---

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه -، برقم: (٦١٣٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه -، برقم: (٤٧).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه -رضي الله عنهما -، برقم: (٢٤١٣).